السوق

صورة بقلم نديم خشفة

دمشق في الصباح لوحة تزخر بالالوان ، ولحن تأتلف فيه الاصوات ، وتختلط النداءات في انسجام رائع. وتسيل دروب القرى بالناس لتنتهي في أسواقها القائمة ، كما تتدفق الشرايين الى القلب بالدم الفائر . والسوق مهرجان ينعقد كل صباح بدعوة من الحياة نفسها ، فيبكر اليه الذين قطفوا أعنابهم بعد أن ناء بها كرمها ، وضاق بالسارقين ناطورها ، ونام من ضنى ، عن ثعالبها كرمها .. ويسرع اليه الفلاحون بالبطيخ كأنه أقراص الشهد، لهوجنة محب شفه الفراق ، وطعم وصال يحلم به العاشقون . وينتشر أمام الحوانيت تلالا كأنه كنز قرصان عشقته حوريات البحر فاحق بهن بعد أن رمى على الشط لآلئه. وتجلس على طرف الطريق بائعات الخبز « المشروح » يقلبن في أيديهن أرغفة اتسعت ورقت ، وصفا لونها ، فكأن النار لم تمسها ، وانما لوحتها شمس طائرة فأنضجتها . فاذا اشتريت منهن شيئا استقبلنك بابتسام يفضح أرتالا من اللؤلؤ ، ويسمح لك بأن ترى الوشم على الشفة السفلى وما حولها . وأذا مضيت أتبعنك نظرات مشفقة تخشى ألا تكون الرجل الذي يعرف لخبز القمح قدره .

وفي السوق أقوام من « الدروز » يتحاورون ، ويعقدون بأيديهم الخشنة صفقات بيع وشراء ، وقد لفوا رؤوسهم بعمامات بيض كأنها التيجان . وتبرق عيونهم العسلية الصافية من تحت حواجبهم الكثيفة . ويشمخ أنفهم الاقنى فوق شاربين أحكم فتلهما ، ولوحهما التبغ بلونه الاشقر . وهم يخللون لحاهم الجعدة بأصابعهم التي زينتها خواتم من عقيق . فكأنهم بنظراتهم الثابتة وصدورهم الشامخة ماوك من نبلاء « آشور » او « بابل » .

... ذلك ، حين تلون الشمس بالحمرة رؤوس المآذن ، وتقبل بالنور وجنات الظلام ، فاذا أشرفت على السوق بموكبها ، ونشرت فوق ضجته جناحها ، وتوهجت حبات العرق على جباه الرجال .. رأيت الازواج ونساء « الارمن » والارامل المترهلات يسرعن الى السوق وقد حملوا حقائب « الخضرة » تحت آباطهم وضموا عليها جوانحهم ، وزاغ بصر البخلاء ، وخفقت قلوبهم ، فهم يتوقعون أن يسلخ الباعة جلودهم في كل حين .

أما البدوي ـ اذا كان فقيرا ـ فيشتري بطيخة يكسرها على الرصيف بسكين استعاره من البائع نفسه، فاذا وجدها البائع بيضاء ـ وقد ضمن له أن تكون باون الدم ـ زجره ، وأمره أن يأكلها بعيدا .. ثم يعود الى زبائنه يحلف لهم بالطلاق أنه لا يبيع الا بطيخا أحمر كالعقيق.

وعلى عتبة المسجد تجلس فتاة من الغجر ، تطرف بأجفانها المكحولة ، وتضرب بالودع ، وتعرف لك فألك بأصدافها البحرية . ولكنها تخفي ذلك بأن تبيع أسياخا للشواء ، وسكاكين مقابضها من خشب ، وربما .. ربما باعت ما وراء ذلك .

في هذا الموكب من الالوان والاصداء ، سار فتى ابن ثمان ، يتلفت وهو يجد في كل شيء أعجوبة تخلق أمام عينيه الزائغتين .. لم يكن عاريا ، فقد ضم على جسده ثوبا يدرك المرء من سعته أن أرملة ما تصدقت عليه به، في ساعة يأس ، ثم أسهدها ضميرها سبع ليال بطولها، وغفرت لنفسها بعد ذلك ، لانها لا تطيق عتاب الضمير .. وفي قدميه حذاء لم يهتريء ، ولكن مسمارا فيه قد اضطر الفتى الى ان يحمل « فردة » منه في يده ، ويعبث بها لاهيا .. ولم يزعجه التشرد عن مأواه ، لكن الشيء الذي يوقظ الطيور في أعشاشها ، والسناجيب في أركارها، قد دفع الى السوق خطاه .. ووقف أمام دكان ، فقد تجلت له فتنة الطبيعة كلها في ثمرة كمثرى ، فرآها بعين شهوته : « صفراء ناضجة ، غسلت وجهها بقطرة ندى ، وغرست في رأسها ورقة خضراء تسيل حياة ونضرة ، واتكأت على قطعة من ورق ملون ، يغلفها كأنه غلالة من ضباب ، يثير الفضول ولا يسمح للحس أن يرتوي.. وهي بين أترابها ملكة تحار العين في أتباعها ، فكلهن حسن، وكلهن شهوات للبصر .. » .

ومسح بلسانه شفتيه الغليظتين كأنهما لتمثال فرعوني ، ثم ألقى حذاءه من يده ، ومد اليها يدا ثابتة لا ترتعش ، ورفعها من جلستها ، وقربها من ناظريه ، ثم وقف يتأملها ، بابتسام .. وأفسد لذته يد البائع الخشنة التي قبضت عليه بجمعها فسقطت ثمرة الكمثرى منه وتعفرت بالطين . ولم يرف للفتى جفن ، فدهش البائع لذلك فلم يضربه ، فهو لم يبك خوفا ، ولم يضطرب كالسارقين ، وخشي أن يكون ابن بعض زبائنه فسأله :

« ابن من أنت . من أبوك » ؟

ولم ينتظر جوابه ، فسأل احد الواقفين :

« هل هذا ابنك » ؟

فأجاب كأنه ينفي عن نفسه تهمة ما :

« ابني ..! ألا ترى وجهه وشعره وشفتيه .. هذا فلسطيني » ..

وأحس بأنه قد أهين فغضب ، ولم يشتر من عنده شيئا .

وبدا هذا العذر للبائع مقبولا ، دون أن يدري لم رضي به ، فدفع الفتى بعيدا ، ثم بصق ، وعاد الى زبائنه وهو يبتسم ... وقال أحد الزبائن كأنه يرشوه فلا يؤاخذه اذا انتقى من الخضرة فأفسد نظامها :

« هذا غريب ، لاجيء ... لا أدري متى يمضي عنا اللاجئون .. » !..

وذاب قوله في ضجة الميزان ، ومضى الفتى في زحمة السوق ، كما تغرق القطرة في البحر العميق .

نديم خشفه

جامعة دمشق — دار العلوم ـ القاهرة